المحاضرة الحادية عشر:

النوع في الثقافة الجماهيرية

تمهيد:

للدراسات الثقافية الفضل الأكبر في تكوين الاهتمام العلمي بموضوع النوع الاجتماعي، ففي مقابل العلوم البيولوجية التي تهتم أكثر بتأثير العوامل الطبيعية في تشكيل الفروقات بين الذكور والإناث، تبحث الدراسات الثقافية عن الفواصل الاجتماعية بين الجنسين، وترى في هذا الصدد بأن النوع هو بناء تاريخي يتأسس داخل التراث الاجتماعي، وتلعب الثقافة دورا أساسيا في سيرورته وماهيته، فالنوع ثقافي في المقام الأول.

إن الانطلاق من هذا الحكم يفضي إلى أن الثقافة تبني النوع، ولا يمكن الحديث عن النوع دون إحالة إلى الثقافة، ولهذا يمكن فهم لماذا تختلف وجهات النظر والأحكام بخصوص النوع وتقييماته ووظائفه وأدواره الاجتماعية من ثقافة إلى أخرى. المراد قوله هنا هو أن الثقافة في نطاقاتها الاجتماعية الضيقة تبني تصورات معينة حول الهوية الجندرية وتصنع لها إطارا اجتماعية يعاد إنتاجه من خلال مختلف عمليات التنشئة.

غير أن ثمة بعض العوامل التي قد تتدخل وتدخل الإطار الثقافي الاجتماعي في حالة منافسة مع مصادر أخرى، ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى حالة الثقافة الجماهيرية التي باتت منتشرة في العقود الأخيرة على نطاق واسع بفعل انتشار استخدام وسائل الاتصال الجماهيرية، حيث أضحت هذه الثقافة أحد أهم روافد تشكيل التصورات الجندرية في مختلف المجتمعات، منافسة في ذلك نظم الثقافة التقليدية التي تحفظها المؤسسات التقليدية للتنشئة.

1- دور الثقافة في تشكيل النوع الاجتماعي:

كما ذكرنا سابقا، فإن النوع ينشأ داخل إطار اجتماعي تاريخي تحدده ظروف كل مجتمع، وتساهم مختلف العوامل الاجتماعية من الأعراف إلى القوانين إلى التنشئة إلى العوامل الاقتصادية في تشكيل الرؤية العامة للمجتمع حيال الأدوار المسندة اجتماعيا للذكور وللإناث. يشير أنطوني غيدينز إلى أن وفيليب صاتن مثلا على الخطأ الشائع الذي يضع النوع كبناء اجتماعي في مقابل الجنس كبناء بيولوجي، إذ أنه يمكن القول بأن كليهما عبارة عن بناء اجتماعي لأن المجتمع هو الذي يضفي على الجسد الذي تنتجه الطبيعة معنى معينا، بدليل أن الجسد أيضا أصبح خاضعا

لهيمنة القوى الاجتماعية ويتعرض لتغييرات مختلفة، فأصبح من المستحيل فصل البيولوجيا عن الثقافة[1].

بغض النظر عن هذا الارتباط، فإن الشائع هو إرجاع تشكلات النوع الاجتماعي في العادة إلى عوامل اجتماعية، ويمكن الإشارة هنا إلى وجود نظريتين مفسرتين للتكوين الاجتماعي للنوع[2]:

*** نظرية الدور الاجتماعي:**

ترى هذه النظرية بأن الفروقات بين أدوار الرجال والنساء تعود إلى التنشئة الاجتماعية وإلى الثقافة، وليس إلى عوامل بيولوجية بحتة، ومن خلال آلية إعادة الإنتاج الاجتماعي يتم تكرار هذه الأدوار بتعليم الأطفال من الصغر ما يجب عليهم القيام به بوصفهم ذكورا أو بوصفهم إناثا.

*** النظرية الوظيفية:**

تستلهم هذه النظرية بعض أفكار المدرسة الوظيفية فترى بأن توازن المجتمع وانسجامه يتطلب توزيعا معينا للأدوار بين الرجال والنساء بناء على العوامل البيولوجية والقدرات الجسمية أولا، ثم بناء على الاحتياجات الاجتماعية الملائمة للأدوار المطلوبة، بحيث يميل الرجال إلى أدوار الحماية وتوفير الرزق، فيما تتمسك النساء بالأدوار العاطفية المرتبطة بالأمومة.

ومهما تختلف وجهات النظر بين أنصار النظريتين يبقى هناك قاسم مشترك بينهما، وهو التأكيد على أن بناء التمثلات حول النوع وأدواره ينشأ عبر مسالك الثقافة، وتتحكم في عملية البناء هذه ميكانيزمات يحددها جورج هربربت ميد في المكانة الاجتماعية والدور الاجتماعي، إذ يرتبط بكل مكانة اجتماعية نموذج معين من السلوك المتوقع، ويجري اكتساب المكانة والدور من خلال التعلم والتنشئة الاجتماعية، وعلى نحو ما يفقد الأفراد استقلاليتهم في مواجهة السلطة الثقافية للمجتمع[3]. يفرض المجتمع من خلال أدواته الثقافية الرقابة على أفراده ويلزمهم تحت وطأة المكافأة والعقاب بتقمص الأدوار المقترحة على الشكل المطلوب، وبالتدريج تُغرس هذه الأدوار في اللاوعي الجمعي وتتعرض لإعادة إنتاج مستمرة من الأفراد.

تتم عملية الإنتاج حيال النوع الاجتماعي على مستويين اثنين: الأول هو المستوى الرمزي الذي تمثله الثقافة مجسدا في شكل صور ومفاهيم، أما المستوى الثاني فهو المستوى العملي الذي

---

[1]- أنطوني غيدينز وفيليب صاتن: مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ترجمة: محمود الذوادي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2018، ص 107.

[2]- عيسى يونسي ونسيمة تلي: النوع الاجتماعي (الجندر) مقاربة سوسيوتنموية، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 8، العدد 2، 2019، ص ص 84-85.

[3]- عصمت محمد حوسو: مرجع سابق، ص 159.

يتجسد عبر سلوكات وممارسات يتم تقليدها[1]، بل إنه يمكن القول بأن النوع الاجتماعي هو نظام رمزي قبل أن يكون نظاما عمليا، فقبل أن يشرع الأفراد ذكورا وإناثا في لعب الأدوار التي تسندها القوى الاجتماعية إليهم فإنهم يتلقون تصوراتها ومفاهيمها الأساسية عبر مختلف أدوات التنشئة الثقافية.

ويلعب الاتصال الدور الأهم ثقافيا في تناقل الصور والمفاهيم حول النوع، ويمكن العودة هنا إلى أحد الشعارات المهمة التي كان ستيوارت هال، أحد أبرز باحثي الدراسات الثقافية، يرفعها على الدوام، فالثقافة هي الاتصال والاتصال هو الثقافة، وعبر الاتصال يتحقق تأثير الثقافة على سلوكات الأفراد وتوجهاتهم[2]. يمثل هذا الحكم من قبل هال قاعدة أساسية في حقل الدراسات الثقافية لفهم كيف ينشأ النوع داخل حضن الثقافة، فبناء الرموز والتصورات يتم عبر مختلف أشكال الاتصال المتشعبة داخل المجتمع، من الأسرة إلى المدرسة إلى المؤسسات الدينية، ووصولا إلى وسائل الإعلام الجماهيرية التي باتت أحد أهم مصادر تشكل تمثلات النوع في المجتمعات المعاصرة.

2- الثقافة الجماهيرية ومشكلة النوع الاجتماعي:

يمكن الإشارة هنا إلى أفكار النظرية الإثنوميتودولوجية للنوع الاجتماعي كإطار مناسب لفهم ديناميات تشكل النوع داخل الثقافة، فمن الخطأ اعتبار النوع بنية سابقة على وجود الأفراد بحيث يتم إسناد هذه الأدوار على سبيل الإكراه داخل عملية التنشئة. ينظر الإثنوميتودولوجيون وأبرزهم ويست وزيمرمان إلى مسألة النوع على خلاف ذلك باعتبارها نتاج التفاعل الاجتماعي بحيث لا توجد خصائص وسلوكات ثابتة للذكورة والأنوثة، وإنما يتشكل الإطار العام لفهم النوع داخل كل موقف بحسب ما توفره عمليات التفاعل من مدركات[3].

وتساعد هذه النظرية على تفسير لماذا أصبحت مسألة الجندر مثيرة لكل هذا الجدل، فمؤسس الإثنوميتودولوجيا ذاته، إرفنغ غوفمان، يستعين بنظرية الدور لتفسير كيف تنشأ الهويات الجندرية بوصفها أدوارا ضمن سياقات تفاعلية معينة، ويركز على حالة وسائل الإعلام التي

[1]- Aili Ninola: "Gender, Culture and folklore", In. Satu Apo et al.: Gender and folklore: Perspectives on Finnish and Karelian culture, Finnish Literature Society, Helsinki, 1998, p. 21.

[2]- Angelica Nicoleta Neculaesei: "Culture and gender role differences", Cross Cultural Management Journal, Vol 17, Issue 1, 2015, p. 32.

[3]- محمد أرزازي: سوسيولوجيا النوع الاجتماعي والفضاء العام داخل المجتمع الجزائري، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 11، العدد 2، 2021، ص ص 643-644.

أضحت منافسا للثقافة التقليدية في تشكيلها للنوع، وهو بالمناسبة لا ينظر للنوع الاجتماعي بوصفه بنية سابقة، بل بوصفه إنجازا[1]. وتمثل الثقافة الجماهيرية بمختلف تشكلاتها المتناقلة عبر وسائل الإعلام في المجتمعات المعاصرة إطارا يمكن من خلاله اكتشاف كم هائل من التحولات في الأفكار التقليدية حيال النوع الاجتماعي، ذلك أنها تفتح الأبواب على مصراعيها لبناء هويات جندرية جديدة منفصلة إلى حد ما عن سياقات الثقافة التقليدية المتمسكة بالخلفية البيولوجية للنوع، وهذا سبب الجدل المثار حاليا. يمكن توضيح هذا الجدل بالإحالة إلى وجود موقفين متناقضين حيال الارتباط بين انتشار الثقافة الجماهيرية عبر وسائل الإعلام من جهة، والتشكلات المتحررة للنوع المتضمنة فيها، وهو الانقسام ذاته الذي يميز النقاش حول موضوع الثقافة الجماهيرية.

ينطلق الموقف الأول من السير على خطى مدرسة فرانكفورت في نقدها للثقافة التي أضحت تعرضها وسائل الإعلام، ويقوم بإسقاط فرضيات المدرسة على قضية النوع من حيث مدى تعبير محتويات الثقافة الجماهيرية عن صور نمطية للجنسين. اتخذ التيار النسوي من هذه النقطة منطلقا له لنقد ما تعرضه وسائل الإعلام من صور نمطية حيال المرأة، واعتبر بأن الثقافة الجماهيرية مثلها مثل الإطار الثقافي العام للمجتمع تعمل على تنميط الأدوار الاجتماعية للذكور والإناث، ويتجسد ذلك ضمن محتويات مثل الدراما، الإشهار، السينما، الألعاب الإلكترونية، وغير ذلك.

نجد ضمن هذا الموقف إحالة إلى أفكار الناقد ماثيو أرنولد التي يعارض فيها الثقافة الراقية أو الرفيعة بالثقافة الجماهيرية، فقد عنون كتابه بـ"الثقافة والفوضى" منافحا عن أساليب الثقافة الرزينة في شكلها الكلاسيكي، وفي الوقت ذاته واسما الثقافة الجماهيرية بالفوضى، وقد ساهمت هذه الرؤية في تقوية موقف المعارضين لتشكلات النوع عبر محتويات الثقافة الجماهيرية على اعتبار أنها ليست سوى وجها آخر للفوضى التي تهدد المجتمعات الساعية نحو الكمال.

ولم يكتف أنصار هذا الموقف بوصف كيفية تشكل الهويات والسلوكات الجندرية عبر محتويات الثقافة الجماهيرية فقط، بل إنهم ذهبوا إلى ممارسة نوع من النقد يربط هذا التشكل بخلفياته السياسية في علاقتها بالسلطة والاقتصاد، وابتداء من الثمانينيات شاع البحث في هذا التوجه

[1]- فاطمة الزهراء كشرود وبن دار نسيمة: الجندر والأدوار الجندرية في وسائل الإعلام: مقاربة المفهوم في إطار نظرية الدور، مجلة أنثروبولوجيا، المجلد 06، العدد 02، 2020، ص 172.

للكشف عن كيفية إعادة إنتاج النظام المهيمن من خلال النوع، سواء سياسيا أو أبويا أو عموديا أو ذكوريا[1]، غير أن هذا الموقف بقي أكاديميا ولم يكن له التزام سياسي ميداني.

أما الموقف الثاني، فيحتفي بقدوم الثقافة الجماهيرية باعتبارها أداة للمقاومة بإمكانها تحرير المرأة، وحتى الرجل، من الصور النمطية التقليدية للذكورة والأنوثة، ويعتبر المحتوى الذي تقدمه وسائل الإعلام ضمن منظور الثقافة الاستهلاكية الرأسمالية الحديثة بمثابة "منعرج ثقافي"، وفي هذا الصدد، يمكن أن نقرأ لكل من ماريتسل إسكيرول سالوم وكريستينا بويول أوزوناس قولهما بأن ثقافة السوق الرأسمالية توجه للمرأة خطابا استدعائيا لاستثمار رغباتها وتحقيق أمنياتها، بناء على أخلاقيات جديدة للرأسمالية الاستهلاكية النرجسية تحت شعار "أنتِ تستحقين"، أخلاقيات تضع خلفها الأعباء التقليدية لرعاية العائلة[2].

يتفق هذا الموقف مع ما تراه الدراسات الثقافية الأمريكية خصوصا، والتي لم تكن تجد في الثقافة الجماهيرية سوى أداة لمقاومة كل أشكال الهيمنة، وبالنسبة لها فإن قضية النوع تبقى في النهاية وجها آخر للهيمنة ساحته هي الفروقات الجنسية بين الذكور والإناث، ولا بد من اعتماد الثقافة الجماهيرية كساحة للنضال من أجل الخروج بالنوع الاجتماعي عن كل قولبة أو تنميط، ورغم أن هذا الموقف لا يكشف عن أي صلة بالمنظور النقدي المعروف إلا أنه راديكالي في إيمانه بضرورة الثورة على الصور النمطية للنوع.

يستند هذا الموقف إلى التيارات النسوية الجديدة، والتي باتت عرف بـ"ما بعد النسوية" المؤسسة لما بات يعرف بالنظرية الكويرية Queer Theory، ممثلة في جوديت بتلر بالأساس، وهي التيارات التي لم تعد تؤمن بضرورة البكاء على أطلال الظلم الممارس ضد النساء في المجتمعات التقليدية والمعاصرة فقط، بل باتت تسعى إلى ترميم الوضع من خلال الدفاع عن وضع أفضل للمرأة داخل وسائل الإعلام. وبخصوص علاقة ذلك بالثقافة الجماهيرية، فإن المطلوب القيام به هو مقاومة التنميط المتضمن في المسلسلات، الأفلام، الرسوم المتحركة، الإشهارات... بكل الوسائل المتاحة، بما في ذلك القراءات العكسية، إعادة تملّك المحتويات المختلفة، أو التأويل المقاوم لنوايا

[1]- Domitila Olivieri: Popular culture and gender, In. Nancy Naples (ed): The Wiley Blackwell encyclopedia of gender and sexuality studies, John Wiley & Sons, Ltd, London, 2016, p. 2.

[2]- Meritxell Esquirol-Salom & Cristina Pujol-Ozonas: "Fifty shades of grey: The neutralization of female sexual desire in a neoliberal time", In. Astrid M. Fellner et al.: Rethinking gender in popular culture in the 21st century. Cambridge Scholar Publishing, London, 2017, p. 11.

المنتجين[1]. وقد يذهب الأمر إلى أبعد من ذلك، حيث تشجع بعض الأطراف على ضرورة كسر هيمنة الملكية الذكورية على وسائل الإعلام وعلى إنتاج الثقافة الجماهيرية، ومن ثمة امتلاك زمام الأمور لإنتاج التمثلات المرغوبة للمرأة بعيدا عن كل القوالب الكلاسيكية.

تذهب النظرية الكويرية إلى أبعد من مجرّد الدفاع عن المرأة في مواجهة الهيمنة الذكورية، وتتعامل مع مسألة النوع بحرية مطلقة انطلاقا من فكرة كان قد أسس لها ميشيل فوكو، وهي اعتبار النوع مسألة اجتماعية تصنعها ظروف الثقافة وفقط، ولهذا السبب رفعت شعار الدفاع عن التحرر الجنسي خارج القالب المزدوج ذكورة/أنوثة، وتبنت إستراتيجيات تسميها "نضالية" للدفاع عن حقها في الظهور علنا من خلال اكتساح حقل الثقافة الجماهيرية وتوظيف وسائل الإعلام لنقل أفكارها بداعي الدفاع عن حقها في إثبات الوجود.

قراءات إضافية:

- جوديت بتلر: قلق الجندر: النسوية وتخريب الهوية، ترجمة: فتحي المسكيني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2022.

- عصمت محمد حوسو: الجندر: الأبعاد الاجتماعية والثقافية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2008.

- Kusha Tiwari (ed): Gender and popular culture, Cambridge Scolars Publishing, London, 2019.

- Benjamin Bateman: Gender and sexuality in popular culture, Cognella Academic Publishing, California , 2013.

[1]- Domitila Olivieri: Op. Cit, p. 3.